المدرسة الإسلامية أو دار الفائزين بمكة المكرمة

● د . عبد اللطيف عبد الله بن دهيش ●

هي ثالث مدرسة أهلية حديثة تؤسس في مكة المكرمة بعد المدرسة الصولتية والمدرسة الفخرية العثمانيتين خلال فترة الحكم العثماني للحجاز . ومؤسسها هو الشيخ/عبد الخالق محمد حسين البنقالي ،(١) وكان تأسيسها في عام ١٣٠٤ هـ (١٨٨٦ م) . وقد أطلق عليها مؤسسها عند تأسيسها اسم المدرسة الإسلامية ،(٢) وخصص لها في البداية منزلاً مناسباً قرب المسجد الحرام ، ثم بنى لها من ماله الخاص داراً كبيرة في محلة المسفلة ، أوقفها على المدرسة ، وذلك في السنة التالية من تأسيسها . كما أنه اشترى عدداً من الدور الصغيرة القريبة منها ، فأوقفها على المدرسة ، وخصص ريعها للإنفاق منه لصالح المدرسة ، بالإضافة إلى ما كان ينفقه عليها من ماله الخاص ، رغبة منه في تأمين سير الدراسة بها ، ومساهمة خيّرة منه في سبيل نشر العلم والمعرفة بين أبناء المنطقة وخاصة من الوافدين إليها .

وقد اشترط الواقف والمؤسس الشيخ عبد الخالق المذكور أن تكون النظارة على هذه المدرسة ، وأوقافها بعد وفاته ، أولاً لابنه محمد ، ثم في حال انقراض ذريته تكون النظارة لأهل الحيثية والمكانة من الميمن القاطنين في مكة المكرمة .(٣)

وإلى جانب هذا العون المادي السخي من المؤسس ، فهناك عدد من المعونات المالية كانت تصل إلى المدرسة من أهل الخير ، وخاصة من مسلمي الهند ، ومن جملة هؤلاء الشيخ دولا بيناري البنقالي ، الذي تبرع هو الآخر بدار كبيرة ، ليتم تأجيرها وينفق من إيرادها لصالح المدرسة ، وذلك في عام ١٣٠٦ هـ الموافق ١٨٨٨ م .(٤)

أما عن المنهج الدراسي في هذه المدرسة ، فهي مدرسة شبه ابتدائية ، ويدرس فيها علوم عدة منها : القرآن الكريم ، الهجاء والقراءة العربية ، والخط والحساب ومبادىء الفقه الإسلامي ، على أنه لم يكن لها برنامج أو خطة معينة تسير عليها لتدريس المواد المقررة بها ، بل كان برنامجها دائماً مضطرباً ، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى أنها كانت تحت أيدي أشخاص لم تكن لديهم أي خبرة في مجال التربية والتعليم .

وكان بها معلمون لا يقل عددهم في الغالب عن اثنين أو ثلاثة ، وكانت إدارتها تضم أشخاصاً يعيّنهم المؤسس ، الذي كان يتولى هو بنفسه رئاسة المدرسة وإدارتها والنظارة على أوقافها . وقد كان بها في السنوات الأولى من افتتاحها عدد من الطلاب لا يقل عددهم عن العشرين طالباً .⁽٥⁾ لكن هذا العدد أخذ في الازدياد تدريجياً ، على أننا لم نتمكن من الحصول على إحصائيات ثابتة وموثوق بها لعدد الطلاب والمدرسين بالمدرسة خلال هذه الفترة ، وذلك لعدم توفر سجلات بذلك .

وقد سارت الدراسة في هذه المدرسة طيلة حياة المؤسس محققة المزيد من التقدم في مجال نشر العلوم والمعرفة في مكة الطاهرة لكن عندما توفي المؤسس في حوالي عام ١٣٣٢ هـ الموافق ١٩١٤ م آلت ثروته إلى ابنه ، كما آل إليه أيضاً الإشراف على المدرسة والنظارة على أوقافها ، فأخذ في تبديد ثروة أبيه على مصالحه الخاصة ، ولم يعط المدرسة ما كانت تناله من والده من عناية واهتمام ، لكن أهل الخير من أصدقاء والده وقفوا له بالمرصاد ، فما كان منه إلاّ أن هرب إلى الهند ، حيث توفي هناك عام ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م ، فآلت النظارة على المدرسة وأوقافها من بعده إلى أحد التجار من الميمن ، وهو الشيخ عبد الستار أبو طالب . وبذلك احتفظت المدرسة بطابعها بعد أن كادت تغلق أبوابها ، وتم تغيير اسمها إلى مدرسة دار الفائزين . وقد عمل هذا التاجر على تسيير الدراسة بالمدرسة على أحسن وجه ، كما استطاع تدبير المال اللازم لدفع مرتبات المدرسين والموظفين بالمدرسة ، بالرغم من المصاعب المالية التي كان يواجهها في تلك الفترة ، وذلك رغبة منه في أن تستمر هذه المؤسسة التعليمية في أداء واجبها ورسالتها العلمية على خير ما يرام .

وفي الوقت نفسه تم تعيين الأستاذ/عباس عبد الجبار مديراً لها وقد استمر في إدارتها مدة خمس سنوات وقام بتطوير الدراسة بها ، فازداد إقبال الطلاب عليها ، ونتيجة لذلك زاد عدد الفصول والمدرسين . وقد خلفه بعد ذلك الأستاذ/محمد سعيد جان ،⁽٦⁾ فبذل جهوداً

موفقة في سبيل رفع المستوى العلمي بالمدرسة ، وعمل على تشجيع الطلاب ومنح المتفوقين منهم جوائز تشجيعية .

ولذلك احتفلت المدرسة بالمتفوقين من طلابها وأقيم حفل كبير بهذه المناسبة ، وقد نشرت جريدة القبلة ذلك الاحتفال ،(٧) مما يدل على أن المدرسة أخذت تخطو خطوات حثيثة إلى الأمام ، وذلك بفضل الله ثم بفضل الجهود الموفقة التي قام بها مديرها الجديد الأستاذ/محمد سعيد جان .

وقد استمرت المدرسة في أداء رسالتها العلمية طوال عهد الشريف حسين ، وكان الشيخ عبد الستار أبو طالب يدعم المدرسة عاماً بعد آخر ، بالهبات السخية ، ويشجع القائمين على إدارتها وهيئة التدريس بها ، ويحضهم على المزيد من الجهد والمثابرة على العمل ، فكان لذلك الدعم المادي والمعنوي أثره الكبير في جعل المدرسة تقوم بواجبها بجهد طيب .

وفي ٢٩ ربيع الأول عام ١٣٣٨ هـ الموافق ٢١ ديسمبر ١٩١٩ م ، أعلنت المدرسة في جريدة القبلة عن التنظيم الجديد الذي أدخل في مناهجها وتعيين عدد من المدرسين الأكفاء للتدريس في هذه المدرسة ، مع توفير اللوازم المهمة التي تحتاج لها المدرسة .(٨)

وعلى ضوء هذا التنظيم أصبحت مدة الدراسة في هذه المدرسة أربع سنوات ، ويدرس الطالب خلالها المواد التالية : القرآن الكريم ، التجويد ، الهجاء ، القراءة ، الكتابة ، مبادىء العلوم الدينية ، مبادىء علوم اللغة العربية (النحو ، والمطالعة ، والمحفوظات) ، والحساب ، والهندسة ، والجغرافيا ،(٩) وأن جميع الكتب في هذه المواد تقدم للطلاب مجاناً .(١٠)

وقد سارت الدراسة بالمدرسة حسب المنهج الجديد فذاع صيتها وازداد الإقبال عليها عاماً بعد آخر ، ففي عام ١٣٤١ هـ الموافق ١٩٢٣ ، كان بالمدرسة خمسة مدرسين وأكثر من مائة طالب موزعين على السنوات الدراسية الأربع .(١١)

وفي العام التالي احتفلت المدرسة بتخريج دفعة من المتفوقين من طلابها ، وذلك في حفل بهيج حضره أمير مكة وجمع غفير من الأعيان والمسؤولين .(١٢)

وبعد فترة توفي الناظر/عبد الستار أبو طالب فأدى ذلك إلى صراع مرير بين القائمين على المدرسة ، لأن كل واحد منهم يطلب أن تكون النظارة على المدرسة وأوقافها بيده ، مما أدى إلى تدني المستوى الدراسي بها . ثم بعد فترة أصبح الإشراف على هذه المدرسة بيد عدد

من النظار الذين لم يهتموا بالمدرسة والمستوى الدراسي بها ، فضعفت الموارد المالية التي كانت تسهم في بقاء المدرسة حتى كادت تقفل أبوابها . وقد أدى ذلك إلى تدخل مديرية المعارف العامة وهي الجهة المسؤولة عن التعليم في المملكة فقامت بإعادة تنظيم المدرسة وجعلت مناهجها تتمشى مع ما هو مطبق في المدارس الحكومية . وتم في عام ١٣٦٥ هـ/١٩٤٥ م تعين الأستاذ/محمد سليم رحمت الله مدير المدرسة الصولتية مشرفاً عاماً على هذه المدرسة . وقد قام بتنظيمها تنظيماً جيداً . وعمل بجهد على حل مشاكلها المالية والإدارية فسارت الدراسة بها بصورة جيدة .(١٣) لكن بعد فترة قل الإقبال عليها فأدى ذلك إلى إغلاقها ، وكان ذلك في عام ١٣٧٢ هـ الموافق ١٩٥٢ م ■

• الهوامش •

(١) هو من أهالي الهند المهاجرين إلى مكة المكرمة ولم نعثر على تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته ، والمعلومات التي لدينا تؤكد لنا أنه عاش في الفترة ما بين أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري ، وأنه عمل مطوفاً للبنقاليين في مكة المكرمة . كما أنه درس في المدرسة الصولتية ولازم دروس الشيخ رحمت الله مؤسس المدرسة الصولتية ، وهو الذي اقترح عليه أن ينفق بعض ماله في مكة المكرمة ويؤسس بها مدرسة ويوقف بها دوراً لمنفعة العلم ، وكان عبد الخالق مؤسس المدرسة الإسلامية ذا مال كثير أنفق جزءاً منه في إنشاء هذه المدرسة وتأمين مواردها المالية .

(٢) جميع صكوك الوقفية المسجلة في محكمة مكة المكرمة ومستنداتها الرسمية الأساسية القديمة تسميتها بهذا الاسم .

(٣) محمد سليم رحمت الله ـ تقرير عن المدرسة الإسلامية ، محفوظ لدى ، ص ١ .

(٤) صك رقم ٣٨٦ بتاريخ ١٣٠٦/٦/٢٤ هـ الموافق ٢٥ فبراير ١٨٨٩ م ، المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة ـ المجلد الأول لعام ١٣٠٦ هـ .

(٥) محمد سليم رحمت الله ، تقرير عن المدرسة الإسلامية محفوظ لدى ، ص ١ ، انظر أيضاً محمد حلمي ، تقرير عن المدرسة الإسلامية ، محفوظ لدى ، ص ٨ .

(٦) محمد سليم رحمت الله : تقرير عن المدرسة الإسلامية . ص ٢ .

(٧) القبلة : عدد ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

(٨) القبلة عدد ٣٤٢ في ١٣٣٨/٣/٢٩ هـ الموافق ٢١ ديسمبر ١٩١٩ م .

(٩) محمد سليم رحمت الله ـ التقرير السابق ، ص ١ ، والقبلة عدد ٣٤٢ ، ٣٤٦ .

(١٠) القبلة عدد ٣٤٢ ، ٣٤٦ .

(١١) مجلة المعارف الهندية ، عدد ١٢ لعام ١٩٢٣ م ، ص : ٣٥٥ .

(١٢) القبلة : عدد ٦٧٤ .

(١٣) محمد سليم رحمت الله ـ تقرير عن المدرسة الإسلامية ، ص ٣ .